مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (21) العدد (14) 1999
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research -Arts and Humanities Science Series Vol. (21) No (14) 1999

الشيب والشيخوخة في شعر الأعشى الكبير

إشراف: الدكتور عبد الكريم يعقوب*
إعداد: غيثاء قادرة**

(قبل للنشر في 1999/11/1)

□ الملخّص □

يتناول هذا البحث موضوع الشّيب والشّيخوخة في شعر الأعشى ؛ لتميّز هذا الشاعر عن أقرانه بأنّه من أبرز من بكوا الشّباب، والتاعوا في بكائهم، وبأنه كان بيّن الإحساس بحريّة الذات، وإرادة الوجود من خلال لهوه، وتمتعه بمباهج الحياة وملذّاتها، وبانصراف المرأة عنه، بسبب عشاه، واشتعال الشيب في رأسه، وعجزه.

ومن هنا بدأت مأساته الحقيقيّة مع الزّمن، لذا راح يستعين بالماضي، عبر الذّكريات الجميلة، على حاضره المؤلم، رغم يقينه بأن حلاوة الذّكريات ما هي غير مسكّن لا يقوى على استئصال ما تجذّر في النفس من خيبة ومرارة، ولا يبدّد ما لفّها من إحساس بالعدم.

* أستاذ في قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة تشرين - اللاذقية - سورية.
** طالبة الدراسات العليا في قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة تشرين - اللاذقية - سورية.

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية – سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (21) العدد (14) 1999
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research –Arts and Humanities Science Series Vol. (21) No (14) 1999

Le Grisonnement , et La vieillesse dans la poésie d'Al-A'cha ALKABIR

Dirigé par: Dr. Abd Alkarim YACOUB*
Preparé par: Ghaissa KADRA**

(Accepté le 1/11/1999)

❐ RÉSUMÉ ❐

Notre travail porte sur le thème de la vieillesse dans la poésie d'Al-A'cha.

Ce poète , beaucoup plus que d'autres , a parlé de la jeunesse perdue et a exprimé, à travers les plaisirs et les jouissances , ce sentiment de liberté. Ce poète croit à la fragilité du moi et du déséquilibre de l'existence , et s'est plongé dans les plaisirs et les jouissances. Son drame commence le jour où une femme évoque devant lui ses cheveux blancs , son héméralopie, son impuissance et sa vieillesse. Il ne lui restait que les souvenirs comme moyen de retrouver sa jeuesse passeé. C'était , pour lui , le seul moyen dont il disposait pour cacher sa faiblesse devant la femme , et pour montrer une certaine force. Al-A'cha était pourtant convaincu que tous ces souvenirs ne font qù apaiser ses souffrances sans le guérir de son mal enraciné dans L'âme.

* professeur au Département d'Arabe – Faculté des Lettres et Sciences Humaines – Unversité de Tichrine – Lattaquié - Syrie.

** Etudiante de Magistère – Département d'Arabe - Faculté des Lettres et Sciences Humaines – Unversité de Tichrine – Lattaquié - Syrie.

المقدّمة:

لطالما كانت الشيخوخة الهاجس الكبير الذي يعتري الإنسان في كل عصر وأوان، فهي المرحلة التي تُظلِم فيها النفس، وتخبو شعلتها، وتتعدم طموحاتها لتستعدّ للزّوال، إذ تأخذ العيون بالبكاء على زمن مضى، وعمر ذوى، وشباب رحل ؛ لأن مرحلة الشّباب هي مرحلة المجد والعطاء، والفتوّة، وهي مرحلة الذّات الحرّة في أوجها.

ولكم شعر الإنسان منذ بدء الخليقة أن حيّاته مؤقته، وأن يوماً سيأتي يفي فيه شبابه، كما جاء في القرآن الكريم[1]: " هُوَ الّذي خَلَقَكمْ من تراب ثم منْ نُطفة، ثمَّ منْ عَلَقة، ثمَّ يُخرجُكمْ طفلاً، ثمَّ لتبلُغوا أشدكُمْ، ثمَّ لتَكُونُوا شُيوُخاً، ومنكُمْ مَنْ يتَوَفّى مَنْ قَبْلُ، ولِتَبْلغُوا أَجَلاً مُسَمَّى ولَعَلَّكُمْ تَعْقلون" وجاء فيه أيضاً[2]: " اللهُ الذّي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثمَّ جَعَلَ منْ بَعْدِ ضَعفٍ قُوةً، ثم جَعَلَ منْ بعد قُوَةٍ ضَعفاً وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ ما يَشَاءُ وهُوَ العليمُ القديرُ." فآخر المطاف مرحلة الشيخوخة المرحلة التي تُشعر المرء – في كل عصر – بدنوّ أجله، ليبدأ إحساسه بالموت النفسي والموت الجسدي، إذ ((تتصل بمشكلة الموت مشكلة على جانب كبير من الأهميّة، هي مشكلة المشيب، أو الشيب والشيخوخة، وهي مرحلة من العمر تتّسم بالضعف والعجز، وعدم القدرة على تحقيق الذات، وتقترن بالانتهاء))[3]، ولم يبق أمام المرء حينئذ إلاّ أن يكفكف دموعه، ويلمّ أحزانه، ويجترّ ذكرياته على زمن مضى، ولن يعود.

وقد عرّف العرب الشيب تعريفات شتى، ولكنها جميعاً تفيد أنّ للشيب علاقة وطيدة بالموت، فهو من بوادر الموت، وبواعثه، وأولى مراحله، فمتى حلّ المشيب فليستعدّ واحدهم لانتظار الموت، وياله من انتظار، ((قال بعضهم: الشيب نذير الآخرة، وقال قيس بن عاصم:

الشيب خطام المنيّة، وقال آخر: الشيب توأم الموت، وقال الحكيم: شيبَ الشَّعرِ موت الشَّعر، وموت الشَّعر علَّة موت البشر، وقال المعتمربن بن سليمان: الشيب أول مراحل الموت وقال النّمري: الشيب عنوان الكبر))[4]. إذن، عنوان الشيب هو الخوف من الفناء المطلق،((والخوف من الفناء المطلق يتظاهر غالباً بانهيار جسدي سريع، وتزعزع نفسي))[5]. وهذا ما حدا بالأعشى إلى خوفه الكبير من الفناء.

العرض:

من دراستنا لصور الشيب والشيخوخة في شعر الأعشى، يتبين لنا أن شاعرنا يتحسَّس، في أسى بالغ الشدة وأسف عميق، موقف المرأة القاسي منه، حين رحلت منكرة عليه مشيبه وشيخوخته، ووقف هو إزاء ذلك مصدوماً مكلوماً لا يصدّق ما حدث، يعيش غربة يشكو خلالها غدر الزّمن الذي رماه في زاوية الغربة، يشكو ألم الشيخوخة وألم الفراق، لأنه ((حين

يبلغ الإنسان من العمر عتياً، فإن فصول غربته الأخيرة تكون قد نضجت تماماً، فإذا كان – وهو شاب – قد استطاع مغالبة بعض ظروف غربته الأولى، ومشاقّها، فإنه في شيخوخته عاجز، مستسلم، ضعيف، لا يجد إلاّ الشّكوى، والبكاء والحسرات))[6]. والأعشى لم يكن بعيداً عن هذا الموقف، بل إنه عبّر عنه في قوله:[7]

بَانَتْ سعَادُ، وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْقَطَعَا ... وَاحْتَلَّتِ الْغَمْرَ فَالْجُدَّيْنِ فَالْفَرَعَا

وَأَنكَرَتْنِي وَ مَا كَانَ الَّذِي نكِرَتْ ... مِنَ الْحَوَادِثِ إِلاَّ الشَّيبَ وَ الصَّلَعَا

قَدْ يَتْرُكُ الدَّهْرُ فِي خَلْقَاءَ رَاسِيَةٍ ... وَهْيَاً،وَيُنزِلُ مِنها الأَعْصَمَ الصَّدَعَا

بَانَتْ وَقَدْ أَسْأَرَتْ فِي النَّفسِ حَاجَتَهَا ... بَعْدَ ائْتِلاَفٍ، وَ خَيْرُ الوُدِّ مَا نَفَعَا

وَقَدْ أَرَانَا طِلاَبَاً هَمَّ صَاحِبِهِ ... لَوْ أَنَّ شَيئَاً إِذَا مَا فَاتَنَا رَجَعَا

تَعْصِي الْوُشَاةَ وَ كَانَ الْحُبُّ آوِنَةً ... مِمَّا يُزَيِّنُ لِلْمَشْغُوفِ مَا صَنَعَا

وَكَانَ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ فَفَرَّقَهُ ... دَهْرٌ يَعُودُ عَلَى تَشْتِيتِ مَا جَمَعَا

وَ مَا طِلاَبُكَ شَيْئَاً لَسْتَ مُدْرِكَهُ ... إِنْ كَانَ عَنْكَ غُرَابُ الجَهْلِ قَدْ وَقَعَا

رحلت سعاد محبوبة الشاعر، وخلّفت في النفس اللوعة والأسَى والفقد، وفي رحيلها رحل الود والوصال، وتركت القلب فارغاً، تركت الحسرة التي لا يمحوها إلاّ طول الزمن الذي فرّق بينهما، وجعلها تتأى عنه في ديار بين الغمرُ و الجُدّين، رحلت بعد أن زرعت في قلبه الحسرة على شبابه، والحقد على زمانه، لأنها أنكرته قبل رحيلها، أنكرت شيبه وصلعه، أنكرت وجوده وسعادته، ونسيت كل الودّ والصفاء، وتذكرّت شكله حين الرّحيل، فقد ((ذوى غصن شبابه وبدت في رأسه طلائع المشيب، وغزاه الشيب بجيوشه))[8] التي لا ترحم يا لقساوة قلبها الذي أهمله، ورماه في وهاد النسيان، قلبها الذي نسيه وسخِر منه، ومن مظهر الذي لا يد له فيما حلّ به، إنها القساوة بعينها.

بل يا لقساوة الدهر الذي لا يرحم، الدهر الذي يطال كلّ حيّ، حتىّ الصّخر الصلب لا يسلم من أذيّته، الصّخر الرّاسي في قمم الجبال قد تصل إليه يد الدهر، وتصدعه، وتنزل منه من هو معتصم في شعاب الجبال وصخورها، ياله من دهر ؟ لا شيء يقوى عليه، ولا راد له، وإن كان كذلك فلا إرادة للشّاعر في التّصدّي له، فهو في حالة مأساوية كبيرة، يحاول أن يخفّف عن نفسه الهول مما رأت، ويحاول أن يردّ على اتّهام سعاد له بجريمته النكراء التي لا يد فيها، يحاول أن يردّ بأنّه الدهر، فهو المسبّب الوحيد لكلّ المصائب والأهوال التي يمكن أن تحدث للمرء، فهو يبّرر عيوبه، و سلبيّته الكامنة في شكله، عبر التسويغ بانتفاء الإرادة فيما حصل، وإيكاله ما حصل إلى الدهر الذي هو ((الغَلَبَة، والقَهر، وسُمِّيَ الدّهر دهراً، لأنه يأتي على كلّ شيء، ولكثرة الحوادث المؤلمة في حياة العرب القاسية ونسبتهم الفعل للدهر، فقد

سبّوا الدهر، وقالوا: مايهلكنا إلاّ الدهر))[9] فهو إذن يعلّق على مشجب الدهر خيبته، والحالة التي وصل إليها بعد رحيل سعاد، فقد غدَا يفتقر إلى الود والمحبّة، إلى التواصل الذي ذهب مع سعاد، وما من حلٍّ يراه الشّاعر للهروب من هذه الحالة التي يحسّ عبرها بالعدم غير الاستعانة بالذّكريات فهي الشّاهد الوحيد على عصر مضى، عصر مليء بالفتوّة والشباب والمتعة والحياة، إنه يستعيد توازنه الذي اختلّ، ويقوّم وجوده الذي اعوج، بالذكريات الجميلة أيّام كان وسعاد محبيّن مخلصين، متوادّين، إنه يتذكّر ثم يعود إلى واقعه، ومرارة هذه الواقع جديد، ليتحسّر بأسى بالغ. ما الفائدة من الذكريات ؟! فهي مسكّن للآلام فقط، لأن الحقيقة لا تبرح النفس أبداً، ويحكي في سرّه: ليت ما مضى يعود، ليت التئام الشّمل يرجع وليت أتلاف القلوب يعود، ،لكن ..... الدهر، يا لذلك الدهر المفجع، الذي يفرّق ما اجتمع بالأمس ثم يعود إلى ذاته من جديد ليدرك الحقيقة المرّة، وهي أن ما يحلم به مستحيل حدوثه، أو عودته فأنا قد شبت –هكذا يحدّث نفسه – وتقدمت بي السّن، وتجاوزتُ مرحلة الشباب وما إليها الصبا، وأفعالهما، إنها الحقيقة المؤلمة التي لا مفرّ له منها.

وفي أبيات أخرى للأعشى، يبكي – بمرارة وحرقة – شبابه الضّائع، أي ما ضيه الجميل الذي كان قد قضاه مع أقرانه، ونسائه الحسناوات، أيّام كان يرتاد حلبات اللّهو، والمتعة، يبكي الحياة التي لم تبق على المنوال ذاته، فقد لعب الزمن لعبته حين أبعده عن تلك الليالي، وجعله يتحسّر، ويتألم، لأنه شعر أن حياته محدودة، وأن وجوده مهدّد، ولا يستطيع أن يُثري وجوده بأفعال جديدة تتمّ على مقدرته وشبابه وفتوّته، فأصبح لا يملك من الشباب والفتوّة إلاّ الذكريات.

هاهو ذا يتساءل في أبياته التالية: أين منيّ عهد الشّباب الذي ولّى ورحل ؟ [10]:

وَعَهْدُ الشَّبَابِ وَلَذَّاتُهُ ... فَإِنْ يَكُ ذَلِكَ قَدْ نُتَّدَنْ

وَطَاوَعْتُ ذَا الحِلْمِ فَاقْتَادَنِي ... وَقَدْ كُنْتُ أَمْنَعُ مِنْهُ الرَّسَنْ

وَعَاصَيْتُ قَلْبِي بَعْدَ الصِّبَا ... وَ أَمْسَى وَمَا إِنْ لَهُ مِنْ شَجَنْ

فَقَدْ أَشْرَبُ الرَّاحَ قَدْ تعلمين ... نَ يَوْمَ الْمُقَامِ وَيَوْمَ الظَّعَنْ

وَأَفْرَرْتُ عَيْنِي مِنَ الْغَانِيَا ... تِ إِمَّا نِكَاحاً وَ إِمَّا أُزَنْ

مِنْ كُلِّ بَيْضَاءَ مَمْكُورَةٍ ... لَهَا بَشَرٌ نَاصِعٌ كَاللَّبَنْ

يتساءل الأعشى في حزن بالغ: أين الأيام التي كنتُ فيها رجلاً صلباً ؟ أين أيام الشّرب والرّاح؟ أين أيّام النّساء الحسان، والخليلات الجميلات ؟ أين أنا اليوم من ذاك الزمن الذي كان حافلاً بالسّعادة والشّباب والإحساس بالذّات والوجود؟ يتساءل في سرّه دون أن بالجواب، فما له بعد ذلك إلاّ أن يعود بذاكرته وأحلامه إلى طيف الماضي، وذكرياته التي علّها تواسيه قليلاً،

وعلّها تعوّض عنه بالأشجان ابتسامات صغيرة، وقشعره بالوجود، بعد أن فرغ قلبه، وأصبح وحيداً، يعود إلى أيام الشّرب واللّهو محاولاً إقناع محبوبته أنه كان، لاهياً، لايلهيه عن أمره شيء، فهو يشرب في وطنه وخارجه أثناء سفره، وهو يمتّع نفسه من النساء الحسناوات، حين يلهو معهنّ كزوج وكخليل، أولئك النساء البيضاوات، المنتصبات القامات اللاّتي يجذبن الناظر إليهن، ويسحرنه لدقّة أبشارهن ونصاعتها.

إنه التعويض الذي يتناوله الأعشى عبر الذكريات، علّة بذلك يخفّف من وطأة المأساة التي يعيشها بشيخوخته تلك،ويخفّف من هول الزمن وجبروته عليه. فهو في استخدامه الفعل الماضي يؤكد ما كان سابقاً في الماضي، كان وانتهى، ولم يَعُدْ له وجود الآن (طاوعتْ، كنتُ، عاصيتُ، أمسى، أقررتُ)، يؤكدّ نهاية الحدث السعيد وبداية الحدث الجديد الذي يحمل الألم والمأساة التي تذكّرة بشيخوخته دائماً.

ولم يرتبط زوال الشباب والشيخوخة بالشيب وانهدام الماضي ورحيل الشباب والفتوّة فحسب، إنّما ارتبطا بالعجز الحقيقي أيضاً، بالكهولة، فعندما يتقدّم العمر بالمرء، يُحسُّ أن لحظات حياته أصبحت معدودة، ولا مجال هنا لأن يجامل نفسه، أو يقنع المحبوبة أنه ما زال شاباً، لأنّ الحقيقة بيّنة ظاهرة.

فحين يتقدّم العمر بالشّاعر الجاهلي – أو أي كائن في أي عصر – يجد أنّ ما أعطاه إيّاه الزّمن في فترة من فترات حياته، عاد وأخذ منه، فقد أعطاه الشباب والفتوّة زماناً ثم أخذهما، وأعطاه العجز والشيخوخة بعد أن طار طائر الشباب، وعلا منكب الشيخوخة المسرعة القادمة من زمن لم يخطر ببال.

وممّا يزيد الأمور وبالاً على الشيخ العجوز، ويحطّم آماله وأحلامه بُعدُ المرأة عنه، لأنها تبحث – بداية – عن الشّباب، وإذا ما ابتعدت المرأة ابتعدت السّعادة من حياة الرّجل، بل ابتعد الوجود، لأن المرأة باعثة الوجود، ويصبح حينئذ الزّمن عدوّ الشّاعر الأوّل والأخير، فلم يَعُد الزمن لديه مجرّ أيام وليال تمرّ، بل أصبح طاغية يجثم فوق صدره، بأنفاسه، وتطلّعاته، وأحلامه ويحدّ من حرّيته وإحساسه بوجوده، وفي حقيقة الأمر ((الشيب هو " علامة أكثر منه أثراً "، إنه ناقوس الخطر، فقد يكون الرّجل قادراً على مواصلة الحسان، ومع ذلك فقد وَخَطَ الشيب فوديه، إلاّ أن المرأة تنظر إلى الشيب كعنصر منفّر، أو مبعد للشباب والفتوّة، وكبداية للانهيار الجسمي))[11].

ولطالما ارتبطت الشيخوخة بالإحباط والمذلّة، حين يصل الأمر بالشّاعر إلى أنّه يفضّل الموت على تلك الحياة الذّليلة، ولا سيّما حين يشعر أنه مثار سخرية من المرأة التي تشكّل أهمية كبيرة في حياته، وإحساساً بذاته ووجوده، وحين تدّعى المرأة بعد عِشرَةٍ طويلة مع

الرجل أنها لا تعرفه، لَكَم تبدو هذه اللحظة قاسية ومؤثّرة في نفسه الرجل، إنه الإحساس بالغربة والضعف، ((ولا شكّ أن معاناة الإنسان في شيخوخته بالاغتراب تكبر إذا طال العمر، وانقطع عن أقرانه))[12].

وفي هذا المعنى يقول الأعشى[13]:

صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنْ جَهْلاً بِأُمِّ خُلَيْدٍ حَبْلَ مَنْ تَصِلُ ؟
أَأَنْ رَأَتْ رَجُلاً أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ الْمَنُونِ وَ دَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ ؟
نِعْمَ الضَّجِيعُ غَدَاةَ الدَّجْنِ يَصْرَعُهَا لِلَّذَّةِ الْمَرْءِ لاَ جَافٍ وَ لاَ تَفِلُ
مِرْكَوْلَةٌ فُوقَ دُرْمٍ مَرَافِقُهَا كَأَنَّ أَخْمَصَهَا بِالشَّوْكِ مُنْتَعِلُ
قَالَتْ هُرَيْرَةُ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا وَيْلِي عَلَيْكَ وَ وَيْلِي مِنْكَ يَا رَجُلُ
إِمَّا تَرَيْنَا حُفَاةً لاَ نَعَالَ لَنَا إِنَّا كَذَلِكَ مَا نَحْفَى وَ نَنْتَعِلُ
فَقَدْ أُخَالِسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفْلَتَهُ وَقَدْ يُحَاذِرُ مِنِّي ثُمَّ مَا يَئِلُ
وَقَدْ أَقُودُ الصِّبَا يَوْمًا فَيَتْبَعُنِي وَقَدْ يُصَاحِبُنِي ذُو الشِّرَّةِ الغَزِلُ
وَقَدْ غَدَوْتُ إِلَى الْحَانُوتِ يَتْبَعُنِي شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ
فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ لَيْسَ يَنْفَعُ عَنْ ذِي الحِيلَةِ الْحِيَلُ
مِنْ كُلِّ ذَلِكَ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ بِهِ وَفِي التَّجَارِبِ طُولُ اللَّهْوِ وَ الغَزَلُ

لقد ابتعدت عنه صاحبته هريرة، وأبت أن تكلّمه، وهو ينظر إليها مستغرباً تجاهلها هذا، وقطع ودّها عنه، فلما ذا كل هذا ؟ ألأنّها رأته رجلاً اجتاحته عوامل الزمن، وجرفته تياراتها العاصفة، فهو كباقي جميع البشر، لا بُدّ أن يأتي عليهم يوم، يرون فيه كم تغيرّ شكلهم، وتبدّل حالهم. ولكنّ الشيء الغريب حقّاً، هو ابتعاد المرأة ونفورها بسبب عشاه، بسبب عجزه الذي أصابه به الدهر. وربما موقفها هذا يدعم ما قاله التبريزي في شرحه لبائية عبيد بن الأبرص[14]: ((إنّ العربَ كانوا يستحبون أن يموت الرجل وفيه بقية قبل أن يفرط في الكبر)).

فقد كان مقياس الرجولة والشباب: الفتوة والقوة والشكل الحسن، وطالما تغيّر هذا المقياس، فَقَدَ المرء وجوده الكامن في القوّة والفتوّة، لأن العجز والشيخوخة يتزامنان في فكر الجاهلي مع الموت، أو مع تباشير الموت، فهو بداية للفناء الذي لا رادّ له، وهو الجلباب الوحيد الذي لا يد له في لبسه. والأعشى يحاول بإرادته وجهده، أن يتخلص من هذا الشّعور – ولو بشكل مؤقت – عبر الذّكرى، ذكرى الماضي الغابر، يومَ كان يلهو مع النساء ؛ إذ حاول التخفيف من وحدته واغترابه بالذّكرى، علّه يردّ على سخرية المرأة منه بتضخّم ذاته الداخلية وليس بتضاؤلها، فهو يشعر ضمنياً أنه قادر على المواجهة، عبر الهروب بمخيّلته إلى

الشهوة العارمة في هريرة، التي ينظر إليها مسترجعاً أيامه معها، فتخترق نظراتـــه ملابســـها لتستقرّ في مواضع الفتنة والإغراء في جسدها، ويتمنّى لو تبذل نفسها له ليريها مدى قوّتـــه، ويقول مؤكّداً لنفسه أوّلاً، وللآخرين ثانيا: إنه قويّ، فتي، فقد صرعها غداة يوم ماطر، وأشبع نفسه من جسدها الغضّ البضّ، وأطفأ شهوته العارمة، فهو قد لهابها، وتلذّذ، و اســتمتع، ولــم يلهه عن ذلك لاه. وهي بالرغم من محاولة ابتعادها عنه، تتمنى في الوقت ذاته الاقتراب منـــه، فهي تتدلّل عليه، وتتغنج، إذ هي تدعو له ولا تدعو عليه بقولها: ويلي عليك وويلي منـــك يـــا رجلً، فهي تتظاهر بالابتعاد عنه فيما هي راغبة فيه ومحبّة له. وهو يردّ على دعائهـــا هـــذا قائلاً: ليتك قد رأيتني في شبابي، وفي إقبال الأيام عليّ، فأنا إن كنتُ اليوم حافياً لا أنتعل حذاء المجد والشباب، فهذا فعل الزّمن الذي جرى، ويجري مع كلّ مخلوق، ففي الماضـــي كنـــتُ، وكانت القدرة، في الماضي كنتُ ذاك الفتى الذي متّع عينيه ونفسه من الغانيات اللّاتي ألهـــاهنّ عن رجالهن، إلى درجة أن الرجال كانوا يخافون على زوجاتهم من سَـــلْبي إيـــاهُنّ بفتـــوّتي ورجولتي، كان شبابي مُسَخّراً في خدمة ذاتي ولذائذها، وكان معي الأصحاب الذين لا يتوانون عن الغدو معي إلى الحانوت للهو وشرب الخمر ولم لا؟ والزمن سائر بـــلا توقّـــف هـــوادة، والعمر ماضٍ، فَلِمَ لا نسبق الأيّام إلى اقتناص فرص السّعادة والإحساس بالوجود، تلك كانـــت حياتي، وتلك كانت أيامي التي عشتها، وفيها لهوت ما شاء لي، واستمتعت، ونلتُ من ملـــذّات الحياة ما أردت.

الخاتمة:

لقد كانت الذكريات هي الوسيلة الرئيسة التي اعتمدها الأعشى لإقناع ذاته أولاً والمرأة ثانياً كان الرجل، الفتى اللاهي، الذي عاش بحرية، واستمتع بوجوده، وانطلق في رحاب الحياة معزّزاً مكرّماً، حافظاً ماء وجهه، وكانت هذه الذكريات المعبر الذي يمكن عبره الهروب مـــن الإحساس بالضعف إلى الإحساس بالقوة، الهروب من الإحساس بالفناء والعدم إلى الإحســـاس بالوجود. إن التذكّر كان تعويضاً عن إحساسه بالعجز تجاه المرأة وتجاه الحياة، لكنه تعـــويض مؤقت، لا يلبث أن يتلاشى، لتبقى الفوهة العميقة في نفسه الثّكلى من هول الإحســـاس بالفنـــاء جراء الشيخوخة، ويعود، ليستدرك واقعه المر من جديد بحسرة ومرارة، وهذا يعـــود بـــالطبع إلى أن الشيخوخة قد ارتبطت في ذهن الأعشى و غيـــره بمعـــاني الانتهـــاء وفـــوات الأوان، و((الشيخوخة كما يقول أندريه مورا: هي الشّعور بأنه قد فات الأوان وأن اللعبة قـــد انتهـــت، وأن مسرح الحياة قد أصبح ملكاً لجيل آخر!))[15]. وهذا المعنى المفهـــوم للشـــيخوخة كفيـــل بشعور المرء بأنه شيء زائد عن الحاجة، ولا شكّ أنه شعور بالغ الألم ؛ لأن الشباب يعني في

كلّ عصر القدرة على الفعل و الاستمرار في مواجهة الحياة، وطالما رحلت مرحلة القدرة أتت مرحلة التعويض عبر الذكرى التي تطفئ جذوة آلام صاحبها، كلما أحسّن بالغربة والضـــعف والشيخوخة، وهذا ما سلكه الأعشى هرباً من الفناء الذي طالـــه عبـــر إحساســـه بالشـــيخوخة والعجز.

الإحالات

[1] غافر: 67.

[2] الروم: 54.

[3] الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي: 100.

[4] البيان والتبيين: 333/2 والخطام: الزمام، على سبيل الاستعارة.

[5] معنى الحياة: 5.

[6] الغربة في الشعر الجاهلي: 261.

[7] ديوانه:101، نكرت: جهلت،خلقاء:ملساء، الأعصم من الظباء والوعول: ما في ذراعيه أو أحداهما بياض، الصدع: الشاب الفتى القوي، أسأرت: أبقت، الطلاب: مصدر طالب، المشغوف: المولع بالشيء، غراب الجهل: غراب الشباب.

[8] زهر الآداب وثمر الألباب: 968/4.

[9] المعاني الفلسفية في لسان العرب: 112.

[10] ديوانه: 15-17، ودنه وودنه: بله ونقعه، وودن العروس: أحس القيام عليها، والأودن: الناعم، الراح: الخمر، الظعن: الرحيل و السفر، الممكورة: الممتلئة الأعضاء من اللحم مع دقة العظام، البشر: الجلد.

[11] الزمان المكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره: 343/1.

[12] الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي: 104.

[13] ديوانه: 55-59، الفند: الفساد، ريب المنون: نوائب الدهر، خبل: من الخبل وهو فساد العقل، الدجن: اليوم الغائم أو الممطرالجاف: غير رقيق، تفل: منتن، هركولة: عظيمة الوركين، فنق: منعمة مترفة، درم العظم: واراه اللحم حتى لم يبق له حجم، الأخمص: ما دخل في باطن القدم فلم يصب الأرض، خلس الشيء: سرقه وأخذه خفية، مائيل: ماينجو،الشرّة: نشاط الشباب، شاو: يشوي اللحم، مشلّ: سواق من شلّ: أي طرد وساق وكذلك شلول، شلشل: خفيف في العمل سريع – شول: يحمل الشيء.

[14] شرح القصائد العشر: 48.

[15] مشكلة الحياة: 153.

المصادر والمراجع REFERENCES

[1]- القرآن الكريم.

[2]- الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، د. حسني عبد الجليل يوسف – مكتبة النهضة المصرية، 1988 م.

[3]- البيان والتبيين الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، نشر لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة.

[4]- ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح وتعليق: محمد محمد حسين، نشر المطبعة النموذجية بمصر 1950م.

[5]- الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشّاعر الجاهلي وشعره، د. صلاح عبد الحافظ دار المعارف بالقاهرة.

[6]- زهر الأداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني – تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل بيروت، الطبعة الرابعة 1972م.

[7]- شرح القصائد العشر، صنعة الخطيب التبريزي – تحقيق د. فخر الدين قباوة، نشر وتوزيع المكتبة العربية بحلب، الطبعة الأولى 1969 م.

[8]- الغربة في الشعر الجاهلي، د. عبد الرزاق الخشروم، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق 1982م.

[9]- مشكلة الحياة د.زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة 1971 م.

[10]- المعاني الفلسفية في لسان العرب، " الفلسفة العربية الأولى "، د.ميشال إسحاق – منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1984.

[11]- معنى الحياة " دراسة في علم النفس الفردي " ألفريد إدلر – ترجمة: محمد هاشم الورديني، دار الكتاب الحديث، بيروت،لبنان، 1984م.